**جامعة العربي بن مهيدي \_ أم البواقي**

**كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية**

**قسم العلوم الاجتماعية**

**محاضرات مقياس**

**مدخل إلى الفلسفة العامة**

**السنة أولى جذع مشترك علوم إجتماعية**

**( المحاضرة الثانية )**

**الدكتور : خالد عبد الوهاب**

**ثالثا : منهج الفلسفة**

**مفهوم المنهج :**

المنهج هو الخطة المتبعة للوصول إلى نتيجة معينة، أو هو الترتيب الذي يتقيد به سير العمل للوصول إلى نتيجة . وهو الطريق المؤدي إلى بلوغ الحقيقة، باعتباره مجموعة العمليات الذهنية التي يحاول من خلالها علم من العلوم إدراك الحقيقة ، مع إمكانية بيانها والتأكد من صحتها. وللمنهج مستوى نظري هدفه الوصول إلى الحقيقة، ومستوى عملي يتحدد باعتباره مجموعة الطرق التي نريد الوصول بواسطتها إلى نتيجة عملية معينة. وإذا كانت العلوم التجريبية تقوم على منهج يتكون من الملاحظة والفرضية والتجربة، وهو منهج ينسجم مع موضوع الدراسة الذي يتألف من عناصر مادية ، وبما أن مواضيع الفلسفة هي في الأغلب ليست مادية فانه كان الضروري ظهور منهج ينسجم مع موضوع الدراسة فيها، وعندما حاول الفلاسفة وضع هذا المنهج تبين لهم أنهم أمام مناهج وليس منهجا واحدا. ومن هذه المناهج الحدس والتمثيل ، ومنهج الشك والمنهج الظواهري والتحليلي والبنيوي والمنهج الفيلولوجي.

**أولا ـ المنهج الحدسي :** الحدس في اللغة هو الظن والتخمين والتوهم. وفي الاصطلاح هو الطريق المباشر إلى المعرفة، وهو إدراك الموضوع الذهني أو العيني دفعة واحدة بدون واسطة. وهو عند ابن سينا سرعة الانتقال من معلوم إلى مجهول(1) ، وعرفه الجرجاني بأنه سرعة انتقال الذهن من المبادئ إلى المطالب. والحدس عند ديكارت هو التصور الذي يقوم في ذهن خالص منتبه لا يبقى على مجال للشك ، صادر عن نور العقل. وينقلنا الحدس عند برغسون إلى باطن الشيء ، بواسطة  التعاطف العقلي الذي يجعلنا نتحد بصفات هذا الشيء أو الظاهرة، بحيث يتعذر أحيانا التعبير عن مشاهدتنا بالألفاظ .  ولاستعمال الحدس بشكل فعال ينبغي  تجنب التسرع، والتعويد على الصبر والأناة والحذر من الأحكام السابقة(2) . وإننا لا نلجأ إليه إلا بعد استنفاد الطرق الأخرى.

والحدس عند أصحابه لا يتبع مراحل متتالية وإنما يحدث فجأة فهو مثل الرؤيا(3). وهو أنواع.

### 1 ـ الحدس الحسي: هو اطلاع مباشر على ما تعرضه علينا الحواس من ألوان وأصوات .

### 2 ـ الحدس النفسي: هو معرفة النفس لأحوالها وأفعالها، فنطلع بشكل مباشر على ما يجري داخل أنفسنا من ذكريات وعواطف ورغبات.

### 3 ـ الحدس العقلي: هو الإدراك المباشر للمعاني والقضايا البسيطة، فندرك استحالة وجود الشيء وعدمه في نفس الوقت، وإدراك النقطة الهندسية التي لا عرض لها ولا عمق ولا طول ، والتعرف على معنى الخط المستقيم الذي لا نهاية لطوله. انه عمل عقلي يدرك به الذهن حقيقة معينة ويفهمها في وقت واحد.

**ثانيا ـ المنهج التمثيلي** :التمثيل هو الحكم على شيء معين لوجود ذلك الحكم في شيء أخر ، أو إثبات حكم في أمر لثبوته في أخر لعلة مشتركة بينهما(4). ويدل التمثيل على التساوي بين نسبتين، فنقول نسبة (أ) إلى (ب) كنسبة (ج) إلى (د)  وعن طريق القلب تصبح نسبة (أ)  إلى (ج) كنسبة (ب) إلى (د). لهذا لا يوجد تمثيل إلا حين نثبت تماثلا بين نسبتين، وفي هذه الحالة يكون الاستدلال دقيقا. وقد وظفه أرسطو عندما أقام تماثلا بين الرئة والخياشم، فالحيوانات التي تعيش في الماء تستعمل الخياشم كما تستعمل الحيوانات التي تتنفس الهواء بالرئة(5). وشبه العالم بالكائن الحي، وشبه نشاط الكواكب بنشاط الحيوانات في عالمنا. وتعرف طريقة التمثيل عنده باسم الاستدلال والبرهان بالمثال، وفي هذه الطريقة  لا ينطلق الباحث من الكلي إلى الجزئي كما هو في القياس، ولا ينطلق من الجزئي إلى الكلي كما هو في الاستقراء. وإنما ينتقل من الجزئي إلى الجزئي وقبله ذكر طاليس إن أصل الكون هو الماء ، وهو في الواقع لم يخرج عن التمثيل،  أو قياس الغائب عن الشاهد حسب مصطلحات أصول الفقه الإسلامي .(6)

إن التمثيل هو كل استدلال يقوم على التشابه بين الأشياء التي هي موضوع البحث، ويستخدم في الكشف عن المجهول،  مثلما يستغل في الإقناع ، كما يمكن استعماله في العرض المبسط . وقد لجأ أفلاطون في محاوراته إلى التمثيل، واسند إليه دورا هاما في دراسة الواقع وفهمه ويتضح هذا في مثال الكهف الذي ذكره في كتاب الجمهورية. إنه منهج التمثيل شائع بين الفلاسفة في مختلف العصور ففي العصر الحديث طبقه هوبز فتبين له وجود تناسب بين الآلية التي تحكم الكون، والآلية التي تحكم حياة الناس في المجتمع (7).

### ثالثا ـ منهج الشك واليقين

### الشك هو التردد بين نقيضين لا يرجح العقل احدهما على الآخر لوجود تساوي في الحكمين أو لعدم وجودها. وعند الجرجاني هو ما استوى طرفاه ، أو الوقوف بين شيئين لا يميل القلب لأحدهما (8). والشك عند ديكارت فعل من أفعال الإرادة يركز على الأحكام وليس التصورات ، لأن التصورات لا تكون صادقة أو كاذبة إلا إذا أضيف إليها حكما معينا. وإذا كان الشك منهجيا Doute Méthodique  فإنه يقود الباحث إلى الحقيقة واليقين عنده (9). و اليقين هو الاعتقاد الجازم الثابت الذي لا يزول بشك، انه حالة ذهنية تقوم على اطمئنان النفس إلى الشيء (10)واليقين عند الجرجاني رؤية العيان بقوة الإيمان لا بالحجة والبرهان (11). وإذا كان الشك المنهجي أول الطريق، فإن اليقين هو النهاية التي يأمل الباحث إدراكها (12).

### وللوصول إلى اليقين يجب أن يبدأ البحث بوضع كل معارفه التي تلقاها موضع الشك، ووضع كل معتقداته العامة موضع الارتياب، وعليه أن يتجاوز أحاكمه المسبقة. وهي النقاط التي تطلبت من ديكارت تأليف كتاب عنوانه ( مقال عن المنهج ) وفيه صاغ منهجه القائم على الشك المنهجي ويتألف من أربعة قواعد :

### 1 ـ إلا اقبل شيئا على انه صادق ما لم تكن لدي معرفة واضحة بأنه كذلك اعني الحرص على تجنب التسرع والتحيز في الأحكام، وألا اقبل منها إلا ما كان حاضرا أمام عقلي بوضوح وتميز بحيث لا يدع مجالا للشك فيها .

### 2 ـ اقسم كل مشكلة تناولتها إلى اكبر عدد ممكن من الأجزاء بحيث تبدو مناسبة لتقديم أفضل حل لها .

### 3 ـ أوجه أفكاري توجيها منظما مبتدئا بأبسط الأشياء والقضايا وهي ما كانت معرفتنا لها أكثر وضوحا واصعد تدريجا إلى معرفة ما هو أكثر تعقيدا .

### 4 ـ أقوم بإحصاءات تامة ومراجعات عامة للتأكد من أني لم احذف شيئا (13).

### وهو المنهج الذي انتقل من مجال الفلسفة إلى العلوم التجريبية والعقلية وكانت نتائجه عظيمة، لأنه ساهم في التحقق من المعارف السابقة، وحطم الكثير من الأساطير التي كانت تنتقل كمسلمات وبديهيات لا يرقى إليها الشك .

### رابعا ـ المنهج الظواهري : الظواهرية أو الفينومينولوجيا مصطلح يتألف من لفظتين يونانيتين logos  و Phenomenon  اللفظ الأول  يعني العلم، والثاني مشتق بدوره من الفعل اليوناني pheinein بمعنى يظهر أو يخرج إلى النور إي ما يظهر. ويأتي في مقدمة المهتمين بهذا المنهج الفيلسوف الألماني  إيدموند هوسرل(1859/1939) الذي كان بأنها تعديل في وجهات النظر، ومحاولة فهم الشيء ليس كما يظهر للحواس وإنما كما يظهر على مستوى الوعي (14) . إي انه كان يريد الوصول إلى حقيقة الأشياء ليست كما تظهر في الخارج وكما ألفها التجريبيون، وإنما يتعامل معها بعد ان تنتقل من الواقع عبر الحواس ثم تتحول إلى مفاهيم و تصورات في الذهن.

### ويمكن توضيح الفينومينولوجيا بهذا المثال، إذا شاهدت اهتزاز أوراق شجرة ، بإمكانك تفسير هذه الظاهرة تفسيرا ماديا، بل تستطيع أن تذهب بعيدا في هذا التفسير، فتشير إلى تأثير فكرة قوانين التوازن التي تتأرجح الأوراق وفقا لها ، وقوانين انتشار الضوء والقوانين التي تحكم انتقاله عبر الأعصاب وهلم جرا. لكن يمكن أن تدع جانبا كل هذه الحقائق المادية التي انتهيت إلى بنائها بفضل تجاربك الماضية ، كما تصرف النظر عن كل هذا التفسير الذي يعتمد على تشابك الأشياء التي تراها موجودة خارج نطاق إدراكك الحسي . وتوجه خاطرك فقط إلى ما يبدو لك وما يظهر لك على مستوى الوعي ، أي الظاهرة وهي الاهتزاز المحض، أو هذا الخاطر الذي احتل مكان في شعورك. وإذا كان الباحث التجريبي يعتقد انه قادر على التعامل مع هذه الظاهرة على أساس أنها مستقلة عنه ، فإن الظواهري يؤكد استحالة فصلها عن الذات والشعور الذي يحس بها ، وعندئذ يحي هذا الخاطر في شعوره كما لو كان جزءا من نفسه . إن هذا التصور الجديد للظاهرة عندما يهتم بما يوجد في الوعي فقط عند هوسرل لا يعني أنه يرفض وجود الأشياء في الواقع التجريبي، وإنما يرى أن الوصول إلى ماهيته يجب ألا يقتصر على المناهج السابقة بل يجب التماسه في الشعور والذات. ولا يعني هذا التصور أيضا انه مجرد استبطان ذاتي، وإنما هو منهج يريد تحليل الأفعال العقلية تحليلا باطنيا قبليا فيه نصيبا من الموضوعية. لذلك هو في واقع الأمر محاولة لتصحيح المنهج التجريبي الانجليزي، مع الإفادة من الكوجيتو الديكارتي، لأنه يبدأ من  بالانطباعات الحسية ، لكنه لا يتوقف عندها،  وإنما يذهب إلى الأفعال العقلية التي صدرت عنها، ويتأمل هذه الأفعال العقلية وما يرتبط بها من موضوعات قبلية وهي التي يسميها هوسرل بالظواهر (15).

### وللوصول إلى ماهية الشيء لا بد أولا أن يتطهر الذهن من الافتراضات السابقة، وهذا يذكرنا بقواعد المنهج عند ديكارت،  والتحرر من الأحكام المبتسرة المنزوعة من سياقها والناقصة . ومن الضروري كذلك البقاء داخل حدود الوصف، وان نقاوم الميل للسير من الوصف إلى الاستدلال وذلك بتعليق الحكم والوضع ما بين قوسين لغاية التأكد من معارفنا، تجنبا للخطأ الذي وقع فيه الاتجاه الوضعي حسب هوسرل عندما تجاهل وجود ماهية الظاهرة واكتفى بمعالجتها كواقعة حسية فقط (16).

خامسا :المنهج التحليلي

التحليل عكس التركيب وهو إرجاع الكل إلى أجزائه (17)، وفي الاصطلاح هو الانتباه إلى التصور ثم تحليله إلى تصورات أخرى تؤلفه، ثم إحصاء كل المعاني التي يدل عليها اللفظ ومحاولة التقاط الخاصية المشتركة بينها (18) . ويعتبر هذا المنهج متناسقا وروح العصر الذي ظهر فيه أي القرن العشرين. وبدأ هذا الاتجاه في انجلترا مع جورج مور، ثم سار في طريقه فيما بعد برتراند راسل والفريد نورث هوايتهد ، وكان هؤلاء يريدون الرجوع إلى العناصر الأولية البسيطة والوحدات الجزئية التي يقوم عليها الفكر والوجود ، ثم العمل على توضيح حقيقة تلك العناصر والجزئيات والعلاقات التي تربطها بعضها ببعض . وبدأ تطبيق المنهج التحليلي على الرياضيات ليكشف الوحدات الأساسية التي ترتد إليها ، وليوضح أنواع العلاقات التي تربطها فيما بينها. وفي الحقيقة فإن تحليل الرياضيات إلى عناصرها عملية شرع فيه قبل ذلك بيانو الذي رد العلوم الرياضية كلها إلى علم الحساب، ثم قام بعد ذلك بتحليل علم الحساب ورده إلى ثلاثة مبادئ أولية بسيطة وأطلق عليها اللامعرفات وهي الصفر والعدد والفئة ، وظن بيانو أن تلك هي أخر المبادئ التي يمكن تحليل الحساب إليها. لكن جاء راسل واستخدم منهج التحليل على العدد ووجد أنه بدوره يرتد إلى فكرة الفئة التي هي من مباحث المنطق، وهكذا وجد أن المبادئ الأولية للرياضيات ترتد إلى المنطق واستمر هذا الاتجاه التحليلي مع الوضعية المنطقية التي ظهرت عند موريس شليك في فينا، ثم حمل لوائها بعد ذلك آير  وكارناب . وبهذا يمكن القول أن  الفلسفة التحليلية هي نتاج مشترك لتزاوج مذهب جورج مور وأفكار الوضعيين الجدد . سادسا ـ المنهج البنيوي : البنيوية ليست مذهبا ايديولوجيا ولكنها جملة الأساليب في البحث الاجتماعي، تريد أن تعكس منعطفا تاريخيا وكذلك التغيرات النوعية الكبيرة التي أتت بها التطبيقات الالكترونية في حقل المعلوماتية، ما رافق ذلك من دعوات للتخلص من عصر سيادة الايديولوجيات الشمولية، والتحول لدراسة البنى الواقعية للظاهرة الثقافية والاجتماعية دون ما حاجة لتفسيرها بالنظريات الشمولية. وتعني البنية في الاصطلاح  الكيفية التي تنتظم بها عناصر مجموعة متماسكة فيما بينها، بحيث يتوقف كل عنصر على باقي العناصر الأخرى ويتحدد بعلاقته بتلك العناصر(19). وأن أي تحول يطرأ على احدها من شانه أن يحدث تحولا في باقي العناصر. والحديث عن البنيوية هو حديث في الوقت نفسه عن المنهج البنيوي الذي يهدف إلى تحليل البنيات الأساسية للموضوعات والأشياء، مستعملا طرق التقصي المستعملة في الرياضيات والفيزياء والعلوم الطبيعية الأخرى(20).

### ويقوم المنهج البنيوي أساسا على دراسة العلاقات في إطارها ثباتها وعلى التزامن بدلا من التعاقب. و بما أن العلاقات تكون دائما في إطار مجموعة، فإن المبدأ المنهجي الذي يقوم عليه هو أسبقية الكل على الأجزاء، فأسبقية الكل على الأجزاء من مبادئ المنهج البنيوي الذي يهتم بتحليل بنية الظواهر الإنسانية والكشف عن علاقتها الموضوعية (21) . وكمثال تطبيقي نجد كلود ليفي ستروس يطبق هذا المنهج للإجابة على هذا السؤال ما هي البنية الأساسية للمجتمعات البدائية؟ وهو يرفض هذا الوصف ولكنه يستعمله على مضض ورفضه مؤسس على قناعة أن هذه المجتمعات تاريخية وليست بسيطة كما يعتقد البعض وليست متخلفة أيضا بالدرجة الشائعة عنها، وعندما طبق هذا المنهج وجد أن البنية الأساسية لهذه المجتمعات هي القرابة المبنية على قانون تحريم زنى المحارم (22).

### سابعا ـ المنهج التأويلي التأويل في اللغة هو الإرجاع، وآل إليه أي رجع إليه، وهو غير التفسير لأن التفسير يركز على شكل الكلمة وما يقابلها من مرادفات ، أما التأويل فيهتم بالمعنى الباطني. والتأويل في العربية يقابله في اللغة الأجنبية الهيرمينوطيقاHerméneutique المشتقة من هيرمز الإله اليوناني المتكفل عندهم باللغة. و يعرفه لالاند بأنه تفسير النصوص الفلسفية أو الدينية ، وبنحو خاص الكتاب المقدس. وتقال عنده هذه الكلمة خصوصا على ما هو رمزي (23). وقد ظهر التأويل كمنهج لتأويل الكتاب المقدس ثم انتقل إلى الفلسفة مع أعمال شلاير ماخر في القرن الثامن عشر، وهنا اتسع ليدرس كل النصوص دينية أو غير دينية. وقد عرف التأويل  في العالم الإسلامي، ومارسه المتصوفة والمعتزلة لفهم القرآن والسنة والتراث بشكل عام. مثال: قال ابن عباس انزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها. وعند التأويل نجد أن الماء يشير به إلى القرآن ، والأودية يعني بها قلوب المؤمنين، وبهذا يكون التأويل هو فهم معنى المعنى .

### ثامنا ـ المنهج الفيلولوجي

### الفيلولوجيا أو فقه اللغة هو التحليل التاريخي المقارن لللغات وذلك بدراسة النصوص المكتوبة واكتشاف عناصر التشابه بين تلك اللغات، وملاحظة تلك التغيرات التي تطرأ عليها عبر الزمن ومقارنة درجة القرابة بين اللغات المتشابهة والتحقق من روابط صلة النسب بينها. ومنهج الفيلولوجيا عند من يستخدمه هو مكمل للمنهج العلمي، لأن هذا الأخير يطبق على الطبيعة المادية التي أوجدها الله،  أما الفيلولوجيا فإنها تأتي لمعرفة وشرح ما وضعه الله في الكتب  السماوية (24) .

**رابعا :** [**أهمية الفلسفة**](http://ns1.almothaqaf.com/a/b12-1/891732-2015-04-02-12-26-18)

لا شك فى أن الفلسفة تعد أكثر أبعاد الفكر الإنسانى تعرضا للطعن والهجوم والتهكم والسخرية فقد كانت دائمًا ضحية لتلك الهجمات الضارية التى وجهت إليها من قبل عامة الناس، ورجال الدين، ورجال العلم، ورجال السياسة .. الخ، وقد استشهد كثير من الفلاسفة فى سبيل ما صنعوا من فلسفات .

لذلك يرى برديائف أن الفلاسفة كانوا دائما جماعة ضئيلة من الأشخاص بين مجموعة البشر، ورغم ذلك فقد تحالف ضدهم رجال الدين واللاهوت والكنيسة، والمؤمنون، والعلماء، ورجال الدولة من محافظين وثوريين والمهندسون والفنيون والفنانون وأخيرا جمهرة البشر . وهكذا يبدو وكأن الفلاسفة هم أوفر أعضاء الدولة نصيبا من الإهمال، أى هؤلاء الذين لا يؤدون وظيفة هامة سواء فى الحياة السياسية أو الاقتصادية، وعلى الرغم من ذلك فإن الطبقات الحاكمة وهؤلاء الذين يقومون بدور هام فى حياة الدولة أو المجتمع يضمرون العداء للفلسفة لأنها لا تخدم أهدافهم فيؤكدون أن الفلسفة عمل لا مبرر له وعبث لا طائل من وراءه .(25)

والحق أن موجات الهجوم على الفلسفة قد وجهت إليها من منطلقات متعددة، ومعظمها تقلل من عدم جدوى الفلسفة، وتحط كثيرا من قدر عمل الفلاسفة وتقول : إن الفلسفة عبارة عن مجموعة من التأملات المجردة التى لا أهمية لها فى الحياة، وأنه ينبغى بالأحرى التوفر على دراسة العلوم التطبيقية لأنها هىالتى تحدد طرائق عمل كل أوجه النشاط (من عمل المهندس إلى عمل المربى)، من مثل علم الاجتماع و علم الاقتصاد وعلم السياسة . والأساس الذى يقف وراء ذلك هو أنه :" فلنعش أولا، ولنتفلسف بعد ذلك" كما يقول المثل اللاتينى، والتفلسف لا يغنى من فقر، ولا يسمن من جوع .(26)

وإذا بدأنا برجل الشارع نجده ينقد الفلسفة وينكرها ويرفضها ويسخر منها قائلا : ما علاقتى بالفلسفة، دعونىوشأنى، إننى مستغرق فىهمومى الخاصة التى ليس فى مقدور الفلسفة أن تقدم أى حل بشأنها، فلن تستطع الفلسفة أن تدبر أمور حياتى المعيشية أو علاقاتى الوظيفية وليس لدى وقت أضيعه فى التأمل، وليس فىمقدورى أن أتكسب بالفلسفة أو أتعلم مهنة مفيدة عن طريقها . إن الفلسفة لا يمكنها أن تضيف إلى شيئا له قيمة، فهى تبدو بعيدة عنى كل البعد، إنها تدور فى دائرة، وأنا أدور فى الأخرى، والدائرتان لا تقتربان أو تلتقيان . لقد قال الفلاسفة الكثير لكنهم رغم كل هذا لم يستطيعوا أن يقدموا لنا حلول نهائية لكل المشكلات التى عانت منها الإنسانية على مر العصور، وكيف كان بإمكانهم ذلك وهم قد اختلفوا وتنازعوا ولم يتفقوا حول كلمة واحدة تريحنا وتكشف لنا عن ذلك الطريق المحدد الواضح الذى تتحقق به سعادتنا . إن الفلاسفة قوم حالمون يعيشون بمعزل عنى وعن غيرى، وهم لا يفعلون شيئا سوى التفكير بعيدا عن أرض الواقع لكى ينتهوا إلى نظريات ومذاهب وأفكار يناقض بعضها بعضا.(27)

ورأى رجال الدين فى مختلف العصور أن الجهد الفلسفى لا طائل وراءه فضلا عن خطورته : فالفلسفة تزعم أن بإمكانها أن تتوصل بالعقل إلى حقائق معينة، فى حين أن مثل هذه الحقائق ينبغى ألا تنكشف أو تؤسس إلا على الإيمان والعقيدة . وتأتى خطورة الجهد الفلسفىفى توهم العقل أن بإمكانه التمرد على العقائد، بل إخضاعها له .(28)

ولقد دأب رجال الدين ورجال السياسة دائما على اضطهاد الفلاسفة وتعذيبهم، بل وإحراقهم فى بعض الأحيان ... والتاريخ الفلسفى نفسه ينبئنا ببعض ما حاق بكثير من الفلاسفة، فلقد حكم اليونانيون القدماء على "انكساجوراس " بالنفى المؤبد لأنه تجاسر فصرح بأن فوق آلهة اليونان روحا مستكفيا بذاته مدبرا لكل شئ . وحكمت محكمة الأيثينين على "سقراط" بأن يتجرع السم بدعوى تطاوله على العقائد وإفساده الشباب والعبث بقوانين البلاد لأنه أعلن الحرب على المتعاليين والمدعين والمهرجين . و"أفلاطون" ألقى به فى السجن وأوشك أن يقضى حياته فى الأسر و "أرسطو" أضطر إلى الهروب من أثينا لينجو بحياته من كيد حاسديه .(29)

ونكل "بابن رشد" فى الأندلس حيث وشى به الفقهاء باسم الدين فجرده أمير الموحدين من مناصبه وأقصاه منفيا إلى قرطبة وأحرق كتبه وأهدر دم "السهروردى" فى حلب و"الحلاج" فى بغداد وقتل كثير من المجددين الذين مهدوا لعصر النهضة فى أوربا أمثال "راموس" و"فانينى" و"جوردانو برونو" الذى أحرق حيا فى روما. وفى المرحلة الحديثة أرغم "ديكارت" على الالتجاء إلى هولندا، وطرد "سبينوزا" من المجمع اليهودى ... وحتى فى القرن العشرين نجد الفلاسفة وقد حفت حياتهم بالمكارة : فمن فلاسفة وضعت الكنيسة بعض مؤلفاتهم فى قائمة سوداء مثل "برجسون" إلى فلاسفة اضطرهم النظام السياسى القائم فى بلادهم إلى النزوح عنها حذر الاضطهاد مثل "برديائف" الذى ترك روسيا البلشفية وعاش لاجئا فى باريس، و"كارل ياسبرز" ترك ألمانيا وعاش لاجئا فى سويسرا.(30)

وهذه الشواهد وغيرها تنهض دليلا على ألوان التعذيب وصنوف الاضطهاد التى صبها الممثلون الرسميون للدين على رؤوس الفلاسفة، ويمكننا أن نشير هنا إلى موقف الفيلسوف الوجودى "كير كيجارد" الذى هاجم الفلسفة تحت ستار الدفاع عن الخبرة الدينية ... فهو يرفض كل محاولات الفلاسفة فى خلق أنساق ميتافيزيقية وصلت إلى حد الكمال مع بدايات القرن التاسع عشر، ويرفض على وجه خاص النسق الهيجلى، ذلك النسق الذى ادعى صاحبه أنه استطاع أن يفسر كل شئ عن الكون والإنسان تفسيرا كاملا عن طريق العقل . وأكد أن الفلسفة لا يجب أن تكون مجردة، بل على العكس من ذلك، يجب أن تركز على تجربة شخصية Personal Experience وعلى موقف تاريخىHistorical Situationيجد فيه الإنسان نفسه، ولذلك كانت الفلسفة عند "كيركيجارد" نقطة ارتكاز لكل حياة فردية، وليست للتأمل التصورى المجرد . (31)

ومن منطلق دفاعه عن التجربة الدينية لم يقف : "كير كيجارد" عند حد رفض النزعة العقلية عند "هيجل" بل رفض كل مذهب فلسفى كائنا ما كان، فلقد كتب يقول : "إن المذهب يعد بكل شئ ولكنه لا يفىبأىشئ على الإطلاق" أضف إلى ذلك أن المذاهب تتطلب التسليم بمسلمات وبديهات ومصادرات لا تحتاج فى ظن أصحابها إلى البرهان العقلى، ومع ذلك فتلك المذاهب تتظاهر بأنها عقلية من البداية إلى النهاية، كما أن اجتهاد أصحاب المذاهب الذين يبذلونه فى سبيل نوع من الكمال المنطقى يقضى على الإدراك للواقع المعاش فعلا . لهذا كان "كير كيجارد" يعتقد دائما أن ما هو على صورة المذهب معارض للحياة معارضة الشىء المغلق للشىء المفتوح، وكان يرى أنه لا يمكن أن تصل إلى الإله بوسيلة طرائق الفكر، واعتبر أن كل محاولة من أجل إضفاء طابع عقلى على العقيدة المسيحية هى تجديف وكفر .(32)

وما كان هجوم "كير كيجارد" على الفلسفة إلا نتيجة لإصراره على القول بالمفارقة paradox فهو يقرر أن المفارقة لا يمكن أن يسيطر عليها الفكر لأن الإيمان يبدأ من حيث ينتهى الفكر . وفى ضوء هذه الفكرة يطالب "كير كيجارد" بضرورة أن نسقط العقل نهائيا إذا كنا نرغب فى أن نعايش بالخبرة أو التجربة الدينية عالم القيم والأخلاق والدين .(33) ومن ثم فهو يرفض كل المذاهب العقلية التى حاولت تعقل التجربة الدينية .

وإذا كانت الفلسفة قد وجدت فى الدين أول مصدر للهجوم وأكثره عنفا فإنها أيضا كانت ضحية لهجمات العلم .. فلقد ظلت الفلسفة ردحا طويلا من الزمان تحيا فى وفاق تام مع العلم، بل كان العلم يحيا فى ظلها، ويحتمى بها، ويستمد شرعيته منها لسبب بسيط واحد وهو أنه لم تكن ثمة تفرقة بين العلم والفلسفة، بل لم يكن هناك أى معنى لوضع حدود فاصلة بين النشاطين، فهما نشاط واحد، نطلق عليها تارة اسم الفلسفة وتارة اسم العلم، ومن هنا عرفت الفلسفة بأنها علم العلوم . ومع انفصال العلم عن الفلسفة بعد أن كان ممتزجا بها وداخلا معها فى كيان واحد، بدأت تثار الشكوك حول وظيفة الفلسفة فى ضوء علاقتها بالعلم، وبدأت بالتالى محاولات إخضاع الفلسفة للعلم . (34)

وهذا ما نجده بوضوح عند "أوجست كونت" فى مذهبه الوضعى الذى حاول خلاله أن يخضع الفلسفة مباشرة للعلم . فلقد أطلق على فلسفته اسم "الفلسفة الوضعية" أى العلمية، وكان يعتبر هذه الفلسفة هى المرحلة الفكرية الراهنة التى وصل إليها العقل البشرى فى تطوره، وفى ظل هذه المرحلة العلمية لم يعد للفلسفة وجود، بل أصبحت تابعة للعلم، عليها أن تسير فى ركاب العلم وتهتم بدراسة قوانينه ونتائجه التى تفسر ظواهر الطبيعة، وعليها أن ترتب هذه القوانين من الخاص إلى العام .

نجد ذلك أيضا فى عصرنا عند دعاة الوضعية المنطقية الذين يوجهون أعنف نقد إلى الفلسفة التقليدية باعتبارها مجموعة قضايا وعبارات عديمة المعنى، وأرادوا بذلك أن يقدموا لنا فلسفة تنهل من نبع العلم وتعاليم العلماء، وتهتم بالتحليل المنطقي لأقوالهم لتحقيق الوضوح فى التفكير وإزالة اللبس والغموض عن ألفاظ اللغة وعباراتها . لذلك يرى "زكى نجيب محمود " - أكبر أنصار الوضعية المنطقية في عالمنا العربي – أنه لا يجوز للفيلسوف أن يقول جملة واحدة يحاول بها أن يصف هذا الكون أو أي جزء منه، وكل مهمته أن يحلل العبارات التي يقولها العلماء في أبحاثهم العلمية والناس في حياتهم اليومية، تحليلا يبين مكنون هذه العبارات حتى نطمئن إلى سلامة ما يقال، إذ هي مهزلة المهازل أن يجلس الفيلسوف على كرسيه فى عقر داره مسندا رأسه على راحتيه زاعما لنا ولنفسه أنه يفكر فى حقيقة العالم وكأنما العلماء أمام مخابيرهم وموازينهم ومقاييسهم يلهون ويعبثون ولا يبحثون عن حقيقة العالم بحثا هو أجدى على الناس من ألف رسالة فلسفية فى هذا السبيل .(35)

ويصف لنا "البرت اشفيتر" حال الفلسفة فى كتابه "فلسفة الحضارة " فيقرر أن الفلسفة قد تراجعت وتخلفت اتجاهاتها فى عصرنا نتيجة انصرافها عن القيام بواجباتها، لقد كانت الفلسفة تقود الإنسانية وتتضمن فى داخلها تفلسفا أوليا عن الإنسان والمجتمع والجنس والإنسانية والحضارة مما جعل لها سمة شعبية واضحة، ومن ثم كانت تهيمن على التفكير العام وتحافظ على التحمس للتحضر، وكانت عاملا فعالا في إنتاج معتقدات عامة عن الحضارة . أما الآن وبعد الانهيار الذي حدث في منتصف القرن التاسع عشر أصبحت الفلسفة عمليا هى تاريخ الفلسفة، لقد غادرتها الروح المبدعة، وأصبحت خاوية من التفكير الحقيقي . كما راحت تتأمل فى النتائج التى وصلت إليها العلوم الجزئية ومن ثم فقدت القدرة على التفكير الأصيل .(36)

وفى ظل هذا الوضع لم يعد للفلسفة رسالة تؤديها للعالم، لقد أصبحت مجرد حذلقة فلسفية يقوم بها منحلون، أصبحت غريبة عن العالم ومشاكل الحياة الروحية العامة . إنها لم تتفلسف فى الحضارة إلا قليلا لأنها خدعت بثرواتها وأهملت غرس الأرض بمحاصيل مفيدة، وبالتالى أسلمت العصر لمصيره وتجاهلت ما فيه من مشكلات .

وعموما رغم كل اتجاهات الشك هذه في جدول الفلسفة لا يمكننا أن نتجاهل أصالة الفكر الفلسفي وفاعليته في بناء الحضارة الإنسانية . فالفلسفة لون أصيل من التفكير لا نستطيع التخلي عنه، فهي مرتبطة بوجودنا ووعينا وإنسانيتنا . والإنسان متفلسف بطبيعته طفلا وصبيا وشابا وكهلا على نحو ما يرى "كارل ياسبرز".. إن النزعة إلى التفلسف ظاهرة طبيعية فى الإنسان ومرتبطة به من حيث هو كذلك . وهذا ما أكده "كانط " نفسه برغم اعتقاده بأن الميتافيزيقيا مستحيلة المعرفة على عكس المعرفة العلمية الممكنة لنا . فهو يقول "لقد قدر للعقل الإنساني في نوع من أنواع معرفته – يقصد الميتافيزيقيا – أن يحمل بأسئلة أملتها عليه طبيعته فلا يستطيع أن يتجاهلها، ولكنها لتجاوزها حدود قدرته هو لا يستطيع أن يجيب عنها ".(37)

إن الإنسان لا يمكنه أن يتحرر كلية من الفلسفة حتى الأطفال لهم رؤى فلسفية تتكشف لنا من خلال تساؤلاتهم حول محتويات هذا الوجود ... فهؤلاء الذين يظنون أنهم لم يغمسوا أصابعهم في أي فلسفة إنما هم متفلسفون هواه، وفى الوقت نفسه الذي يستخفون فيه بأعمال رجال ذوى قدرات عقلية تفوق قدراتهم أيما تفوق، فإنهم يبنون لأنفسهم فلسفاتهم الخاصة، وإن تكن معدومة الفائدة ورديئة القيمة .(38)

وإذا كان من الحق أن الفلسفة معادية للغالبية العظمى من الناس ، فمن الحق أيضا أن كل إنسان فيلسوف بمعنى من المعاني دون أن يدرى ذلك . فكل إنسان شعر بذلك أو لم يشعر، يحاول أن يحل مشكلات ذات طبيعة ميتافيزيقيا، وهذه المشكلات أكثر مساسا بحياته من المشكلات الرياضية والطبيعية، والفلسفة الشائعة سمة مشتركة للطوائف والطبقات والمهن المتعددة كالسياسة سواء بسواء والإنسان الذي يشعر بنفور من الفلسفة أو الذي يحتقر الفلسفة له هو أيضا فلسفته الخاصة، ولو لم يكن ذلك حقا بالنسبة للسياسي والثوري والمتخصص والمهندس والرجل الغنى لما خطر لهم أن الفيلسوف رجل تدعو إليه الحاجة .(39)

ولهذا فإن التقليل من قدر عمل الفلاسفة هي مسألة باطلة وخاسرة ولا يمكن تبريرها ... فالفلسفة هي التي تحمى الإنسان من الهبوط إلى مستوى البربرية وتساعد على بقاء الإنسان إنسانا، وعلى أن يصير إنسانا على نحو أفضل، ومهما بدا فى الظاهر من عدم جدوى الفلسفة فإن الفلسفة فى الواقع قوة تاريخية مؤثرة وقادرة . فينبغى أن نوافق "وايتهد" حين يقارن ما أحرزه الاسكندر المقدونى أو قيصر الرومان من نجاح بالنتائج التى تبدو فى الظاهر غير مثمرة التى يحصل عليها الفيلسوف، فالواقع أن الذى يغير مسار الإنسانية إنما هو الفكر .(40)

ويؤكد "وايتهد" أهمية الفلسفة للحضارة من حيث إنها محاولة لتنظيم جميع المعلومات المتوفرة فى فكرة عامة . كما أنها أكثر تأثيرا من كل الدراسات الفكرية، فهى تبنى القصور الشامخة قبل أن يكون العمال قد حركوا حجرا واحدا، وتهدمها قبل أن توضع مواد البناء فى أماكنها . إنها مهندسة مبانى الروح وهى أيضا محطمتها، والفلسفة قد تعمل فى بطء، فقد ترقد الأفكار فى سباتها عدة قرون ثم على حين غرة يجد الجنس البشرى أنها أصبحت جزءا أصيلا فى كيانات النظم الاجتماعية . والفلسفة أولا وأخيرا جهد يهدف إلى الحصول على فهم منسق منطقى للأشياء الملاحظة.(41)

كما يؤكد المفكر المصري (عثمان أمين) أن الفلاسفة هم الذين يحركون الحضارة بأفكارهم، فإذا كانت الأفكار الكبيرة المبتكرة تفعل فعلها بصورة بطيئة فإنها تكون هائلة شأنها فى ذلك شأن الذبابة التي تلدغ فتستشير الوعي، أو شأن منارة تشير إلى مكان أفضل . فالفلسفة صانعة التاريخ، والتاريخ الإنساني بأثره هو تاريخ فلسفات وأيديولوجيات، فالأيديولوجية القديمة عند اليونان والرومان قد قسمت الناس إلى سادة وعبيد، ولهذا ظل الرق شائعا زمنا طويلا، وظلت نظريات الشعوبية والعنصرية صامدة مدى قرون، فلما جاء السيد المسيح نادى بالمساواة بين الناس فنشأت فلسفة تدعو إلى المحبة والوئام والسلام، ثم جاء الإسلام مصرحا بالدعوة إلى العدالة والزمالة والأخوة الإنسانية فكانت هذه الدعوة عمادا لفلسفة جديدة تبشر بالديمقراطية الحقيقية والاعتزاز بكرامة الإنسان .(42)

وفى الاتجاه نفسه يؤكد "جون ديوى" أن الحضارة ليست إلا وليدة الفلسفة وأن الفلسفة بدورها من نتاج الحضارة وليس ثمة فارق حاسم بين الفلسفة ودورها فى تاريخ الحضارة، فإذا عرفت مهمة الحضارة وحددت خصائصها التى تميزها أدركت تعريف الفلسفة نفسها . فوظيفة الفلسفة أن تنشأ نماذج يجرى على نمطها التفكير ويسير بمقتضاها السلوك، وبها تتقدم الحضارة، وبغير الفلسفة لا تكون حضارة . بل استخدم "ديوى" فى إيضاح وظيفة الفلسفة التعبير الذي قاله من قبل "كارل ماركس" أن مذاهب الفلسفة منذ الماضي السحيق قد اقتصرت على تفسير طبيعة العالم بطرق شتى (عقليا وتجريبيا) ولكن مهمة الفلسفة ينبغي أن تكون العمل على تغييره، وبتغيير العالم يغير الناس أنفسهم ويستحدثون قوانين جديدة تهيمن على مجرى التاريخ .(43)

ولما كانت الفلسفة هي مجمل الآراء والتصورات الإنسانية القائمة على ممارسة التأمل فى هذا العالم والبحث في كافة القضايا المتعلقة بالوجود والمعرفة والمجتمع ومشكلة الحقيقة وأشكالها المختلفة كان من الطبيعي أن ترتبط بجوانب حياتنا بمستوياتها وأشكالها الحضارية المتغيرة . فهي تلعب دورا مؤثرا في حياة الإنسان ودورا حضاريا كبيرا في حياة الشعوب والمجتمعات عبر العصور والأزمان وفى جميع المجالات فمثلا فى مجال السياسة لعبت مؤلفات "جون لوك" دورا هاما فى تطوير الديمقراطية الأمريكية، كما قدمت نظريات "كارل ماركس" شكلا جديدا للحكومة . وأيضا أفكار "فولتير ودالمبير ورسو وديدرو" هي التي عجلت بظهور الثورة الفرنسية .

والفيلسوف الألماني "هيجل" هو الذي فتح الطريق لتظهر حركات مختلفة مثل الفاشية والحركة الهتلرية والشيوعية . وهو بهذا يعد إحدى القوى التي قامت بتغيير وجه العالم فى القرن العشرين الميلادي .(44)

كما كانت الثورة الروسية تطبيقا لأفكار ماركس ودراسة فلسفة "ديكارت" يمكن أن تمدنا برؤية واضحة عن حضارة القرن السابع عشر التى غلب عليها الطابع الهندسىوالرياضى .. فلا شك إذن فى أن للفلسفة وظيفة اجتماعية قامت بها منذ نشأتها حتى اليوم فما من ثورة اجتماعية أو دينية أو سياسية أو غيرها إلا وكان ورائها فلسفة ولو لم يقصد إلى الثورة أصحاب هذه الفلسفة، بل ولو لم يكن القائمون بالثورة من المشتغلين بالفلسفة ومذاهبها .(45)

ولاغرو بعد هذا أن رأى عثمان أمين أن مكانة الفلاسفة فى التاريخ أعظم بكثير من مكانة الملوك والسياسيين والفاتحين، فالإسكندر المقدونى، ذلك البطل الفاتح الذى مات بعد أن قلب الدول وغزى الأمصار وضم الشعوب، لم تعرف له الدنيا نظريا فى العصر القديم، ولكن ماذا بقى اليوم من أعماله ومحاولاته، أما أرسطو مربى الإسكندر فقد ظل معلم الإنسانية أكثر من ألفى سنة . وما زلنا نجد إلى يومنا هذا من الشعراء والخطباء من يلتمسون عنده قواعد فنهم كما نجد من السياسيين والأخلاقيين من يطلبون عنده أصول الحكم ومبادئ الأخلاق .(46)

والسياسي في التاريخ الحديث يمكن أن يقارن بالوزير الفرنسي "إيشلو" ذلك السياسي الموهوب الذى استطاع أن يقيم نفسه في أوربا حاكما بأمره، يتصرف في السلم والحرب كما يشاء، واستطاع أن يقضى على نظام الأرستقراطية الفرنسية، وأن يغلب المذهب البروتستانتي وأن يدل ملوك النمسا، وأن يرعى نهضة العلوم والآداب . لكن مع هذا لا يستطيع أن ننسب إليه أنه مهد للمستقبل مقدار ما مهد له ذلك الفرنسي الآخر "ديكارت" الذي استطاع – إبان حملة حربية من حملات الشتاء في حجرة دافئة، وفى عزلة عن لجب المدن والمعسكرات – أن يكتب صفحات خالدة أعلن فيها أن ماهية النفس هي الفكر، وأنه لا ينبغي للمرء أن يقبل شئ قط على أنه حق ما لم يتبين له ببداهة العقل أنه كذلك، وأن العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس .. لقد أصبح المقال فى المنهج "دستورا للفكر الجريئ وأضحى ديكارت أبا للثورة الإنسانية الكبرى".(47)

إن الفيلسوف الذي تسخر منه العامة لأنه يعيش فى عالم أفكاره، هو فى الحقيقة قوة مهولة وفكره ذو تأثير لا يقل عن تأثير الديناميت . وهذا الفكر يسرى فى مجراه، ويلمس عقلا بعد الآخر، ليصل فى النهاية إلى الجماهير ثم تأتى اللحظة التى ينتصر فيها على كل العقبات وليوجه مسار حركة الإنسانية أو يحفر قبرا لحطامها . فمن يحب أن يعرف طريق المستقبل ينبغى أن يصغى، ليس إلى الساسة، بل إلى الفلاسفة، إن ما يعلنه الفيلسوف اليوم هو ما سيصير عقيدة الغد .(48)

ومنه فالفلسفة تقوم بالعديد من المهام التي تثرى خبراتنا اليومية فهى :

أولا :تساعدنا على صياغة سلوكنا، فنحن نطوق إلى معرفة كيف نميز بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، والحسن والقبح، الأعمال الأخلاقية والأعمال غير الأخلاقية، وبين ما يجب عمله ومالا يجب عمله . وفى معظم لحظات حياتنا الخاصة نتساءل فى دهشة : كيف يمكن أن نعيش حياتنا على أفضل وجه، وكل ذلك يرتبط بمهمة علم الأخلاق Ethics .

ثانيا :الإنسان لا يمكنه أن يعيش فى عزلة داخل المجتمع، فنحن لا يمكننا أن نتجنب التعامل باستمرار مع الآخرين، ولذلك فإن طبيعة حياتنا تتأثر بسلوكهم . كما أننا فى حاجة إلى معرفة تلك القوانين العامة التى تنظم التعاون القائم بين أفراد المجتمع، والقواعد العامة التى ترسم الشكل الملائم للحكومة . وعملية صياغة هذه المبادئ، ووضع تلك القوانين، وتشكيل الحكومات هى مهمة الفلسفة السياسية Political Philosophy

ثالثا :كثيرا ما نمد تفكيرنا إلى ما وراء هذا العالم فنطرح كثيرا من التساؤلات عن الآخر، وعن مصير الإنسان ومركزه فى هذا لكون، والبحث فى مسائل وقضايا مصيرنا مهمة الأديان Religion

رابعا :أحيانا نستطيع إثبات صدق إدراكنا ومعارفنا، وأحيانا لا نستطيع ذلك، وما يمكننا من فهم أسلوب عمل عقولنا وأنماط تفكيرنا، وطريقة تحصيل المعرفة هى نظرية المعرفة Theory of knowledge أو الابستمولوجيا . (49)

تؤثر الفلسفة إذن فى رؤية الإنسان لمشكلاته الخاصة، وفى رؤيته للقضايا العامة المرتبطة بهذا الكون الذي يعيش فيه، وفى أساليب تفكيره ومعظم جوانب حياته المعيشية سواء أكانت سياسية أم اجتماعية أم اقتصادية أم ثقافية، كما أن الفلسفة تعمل على تغيير الأوضاع القائمة فهي تثور دائما على كل ما هو سطحي ومبتذل عن طريق تجاوزه والتعالي عليه وتحديده وتقويمه، إنها لا تقف عند حد معرفة الواقع فحسب، بل تحاول كذلك أن تغيره ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، كما أنها تمكن الإنسان من استجلاء قوانين هذا الكون ومد سلطانه على الطبيعة واستخدام مواردها لصالحه، وبالتالي جعل حياة الإنسان أكثر رونقا وجمالا على ظهر الأرض . وتقدم لنا الفلسفة أيضا إمكانات عديدة توسع من آفاق فكرنا وتزيد من معرفتنا وتنعش إحساسنا بالعجب والدهشة وذلك بإظهارها الأمور المألوفة بمظهر غير مألوف .

وإلى جانب فائدة الفلسفة فى الكشف عن إمكانات غير مألوفة فإن لها قيمة – وربما كانت هذه هى قيمتها الرئيسية – مستمدة من عظمة الموضوعات التى تتأمل فيها، من الحرية فى الأغراض الضيقة والشخصية الناجمة عن هذا التأمل . إن حياة الرجل المقود بالغرائز حياة حبيسة داخل دائرة من الاهتمامات الخاصة وقد تشمل الأسرة والأصدقاء، لكن العالم الخارجي لا يلتفت إليه إلا من حيث أنه يمكن أن يساعد أو يعوق ما يدخل فى نطاق الرغبات الغريزية وفى مثل هذه الحياة لا سلام، بل كفاح مستمر بين إلحاح الرغبة وعجز الإرادة ولابد أن ننجو من هذا السجن ومن هذا الكفاح إذا شئنا لحياتنا أن تكون عظيمة وحرة على نحو أو آخر، وإحدى وسائل النجاة تكون بالتأمل الفلسفي .(50)

فالفلسفة تقدم لنا التأمل والتفكر وثمرات قرائح السابقين والتحرر الشجاع من سيطرة المادة، إنها تستوحي منابع طاقتنا الروحية، وتستهدى كوامن ضميرنا الخلقي وتضع حريتنا أمام مسئوليتها الخطيرة فى أفعال الاختيار . بالفلسفة يتحد الإنسان بمنبع كيانه ووجوده وروحه ويتحرر من كل ما عداه فلا يقع تحت سيطرة الخوف من الآخرين أو العالم أو الموت أو النزعة الشيطانية لدى الإنسان التى تفسد بالكذب والخداع وتمويه الحقائق وبالدكتاتورية السياسية وبالمال وبالجاه وبالسلطان .(51) كما أن الفلسفة تجعل الإنسان يكتسب دقة فى التفكير ورقة فى الشعور، وسموا فى التعقل والعاطفة، فهى دليل العقل وأساس المثل والقيم الروحية . وإذا كان خصوم الفلسفة كثيرا ما يستندون فى رفضهم لها على أنها أشبه بوجهات نظر مختلفة لا تضيف إلى ما يسبقها جديدا بقدر ما تقدم رأيا بديلا لرأى آخر، فكل مذهب فلسفي يحاول أن يفند المذاهب السابقة عليه، ويدعى لنفسه أنه وحده الصحيح ويملك الحقيقة المطلقة بمفرده، فهناك دائما اختلاف وعدم اتفاق فى الفلسفة .

فإذا كان بعض خصوم الفلسفة قد نظروا إليها من هذه الزاوية زاوية الاختلاف البادي فيها، فحقا لا يوجد اتفاق أبدا فى الفلسفة، لكن عدم الاتفاق وكثرة الخلافات هى من طبيعة التفكير الفلسفي ذاته، فكل مذهب فلسفي يحاول أن يبين مواطن الضعف فى المذاهب الأخرى، ويقدم لنا رؤية مختلفة خاصة به، وقد يتأثر فى كثير من الأحيان بآراء السابقين عليه، وإذا كانت آراء الفلاسفة تختلف مع بعضها البعض فهذا لا يقلل أبدا من قيمة الفلسفة، بل هو يرتبط بالحرية الفكرية التى يجب أن يتمتع بها الفلاسفة . فالفكر الفلسفي الأصيل بطبيعته فكر حر متفتح، فهو يرتبط بوعى الإنسان نفسه، إن اختلاف المذاهب ليس عيبا فى الفلسفة بل هو يرتبط بماهية الفلسفة ذاتها .

ومن يود لو لأنه كان هناك اتفاق على شئفى الفلسفة حرصا منه على اليقين فيها فإنه يفكر بعقلية العالم لا الفيلسوف معتقدا أن الحقيقة واحدة بعينها فلا ينبغى أن يوجد فيها اختلاف . والأمر كذلك حقا لو كنا بصدد الفلسفة الواحدة الدائمة التى تحدث عنها "ليبنتز" وآخرون كثيرون اليوم، وقال إنها لم تتحقق فى وقت من الأوقات، وإن كانت الفلسفات العديدة كلها تعبيرات مختلفة عنها فهى أشبه ما يكون بالرؤى الصادقة والباطلة التى تتكامل فيما بينها ويصحح بعضها بعضا والتى يراها عن مدينة بعينها سائحون مختلفون آتون من أنحاء مختلفة من المعمورة وفى عصور متفاوتة. ولكن هذه الفلسفة الواحدة الدائمة التى يطوف حولها الفلاسفة جميعا ولم يظفر بها واحد منهم بعد، رغم أنها موجودة فى ماهية الفلسفات على اختلافها لا يمكن أن تأخذ بالطبع صورة بناء عقلى يصلح للجميع ويفصح عن الحقيقة الواحدة التى تلزم بالاتفاق بين الناس على طريقة العلم . فلم يبقى والحالة هذه إلا الاختلاف بين الفلسفات وإلا القول بأن هذا الاختلاف خير كله للفلسفة لأنه يتفق وطبيعتها أو واقعها باعتبارها اقترابا واحداقا بكل جانب من جوانب الحقيقة القصوى التى تنأى عن الإنسان لكونها مفارقة .(52)

ولذلك نجد الفيلسوف الأسبانى "أورتيجا إيجاست" يقدم لنا تفسيرا لضرورة التعدد فى المذاهب الفلسفية . فالاتجاه الصحيح عنده هو القول بوجهات نظر عديدة بقدر الذين ينظرون إلى الكون، وكل ينظر إليه من زاويته الخاصة . وكما لا يمكن اختراع الواقع كذلك لا يمكن اختراع وجهة النظر . ووجهات النظر كلها صادقة لأن كلا منها يمثل المنظور الذى منه ينظر الإنسان إلى الكون . إنها لا تستبعد بعضها بعضا، بل بالعكس، هى متكاملة، أى يكمل بعضها بعضا، وليست منها واحدة تستغرق أو تستنفذ الواقع كله، بل لا يمكن أن تنوب إحداها عن غيرها أو تحل محلها.(53)

ومن هنا أطلق "أورتيجا" على نظريته فى المعرفة اسم "نظرية المنظور النسبى" أو "المنظورية" perspectivism ومؤدى هذه النظرية أن العالم يمكن أن يدرك فقط من خلال وجهة النظر الفردية، وليس ثمة وجهة نظر غير وجهة النظر الفردية، وبالتالى لا يمكن تجاوز وجهة النظر الفردية أو التعالى عليها، وكينونة العالم Being of the world ليست عقلية ولا مادية ولا أىشئ محدد، وإنما هى منظور . وكل منظور يتصف بالوحدة والتفرد أى لا يمكن أن ينوب عنه غيره، كما أن كل المنظورات أو وجهات النظر متكاملة أى يكمل بعضها بعضا . إذن وجهات النظر كلها صادقة، والمنظور الوحيد الزائف Falce هو الذى يدعى أنه هو وحده الصادق ولقد ربط "أورتيجا" بين نظرية المنظور وفكرته عن الحياة على اعتبار أن الحياة تؤلف نسيجا من الذات والأشياء ويتضح لنا ذلك من عبارته : "كل حياة إنما هى وجهة نظر عن الكون" وأيضا فى عبارة أخرى"أن الحياة ليست روحا ولا جوهرا وإنما هى منظور" .(54)

ولما كانت وجهات النظر متعددة فهناك فلسفات متعددة كلها صواب، وعن طريق وجهات النظر هذه يمكن بلوغ الحقيقة، فقوام الحقيقة هى سلسلة من وجهات النظر المترابطة مع بعضها ... ومجمل القول أن نظرية المنظور عن أورتيجاهى محاولة للقضاء على الخلافات بين المذاهب الفلسفية المتنوعة، فالتعدد فى هذه المذاهب يرجع بالدرجة الأولى إلى وجود وجهات للنظر عديدة بقدر الذين ينظرون إلى الكون، وكل اتجاه فلسفى ينظر إليه من زاويته الخاصة .

كما أن محاولة طبع الفلسفة بالطابع العلمىهى محاولة ليست فى مركز يسمح لها بتقدير إمكانيات الإنسان العقلية، فهى تعالج كل شئ من حيث هو موضوع، ولا تعفى من ذلك الذات الإنسانية نفسها، إنها تقضى على إنسانية الإنسان، وعلى روح الإبداع الخلاقة فيه، لذلك يرى "برديائف" أن الفلسفة كانت وسوف تظل نفسها ولا شئ آخر غيرها، وهى لا يمكن أن تكون علما أو دينا ومن ثم فإنها لا يمكنها أن تعتمد على نتائج وتحققات العالم أو تجعل نفسها مرتبطة باكتشافاته، وكل إدعاء تدعيه الفيزياء الرياضية بقدرتها على أن تصبح أنطولوجية كاشفة الأشياء هو فى حقيقته إدعاء كاذب زائف أقرب إلى الدجل منه إلى الحقيقة .(55)

إن من يتجنون اليوم على الفلسفة باسم العلم، زاعمين أن وراء تجربة الحس ومقاييس الكم لا يوجد إلا الخيال والوهم هم أشباه علماء أو علماء زور بتعبير "الفارابى" فما عهدنا فى كبار العلماء فى كل عصر إلا تقديرا للفلسفة رفيعا غير محدود : "جينز" و "إدنجتون " و "بوانكاريه" و "لوى دوبروي" و "ألكسيسكارليل"من معاصرينا، و "ديكارت " و "ليبنتز" و "نيوتن" قبلهم بقرنين أو ثلاثة هم جميعا رجال أخذوا من حضارة أوربا وثقافة الغرب بأوفى نصيب، وأسهموا فى تقدم العلم بأصدق الجهود، وظفروا فى مضمار الفكر الفلسفى بالقدح المعلى .(56)

وإذا كان "أفلاطون " قد نادى قديما بأن الفلسفة يجب أن تكون حارسة المدينة و"ديكارت" قد نادى حديثا بأن الفلسفة هى وحدها التى تميزنا عن الأقوام المتوحشين، وأن ثقافة الأمة وحضارتها إنما تقاس بمقدار شيوع التفلسف الصحيح فيها، فإننا نؤكد اليوم أهمية الفلسفة فى خلق مواقف جديدة للفرد من أجل تنمية قدراته لمواجهة الواقع الحتمى الذى يحتويه . فلما كانت حياة الإنسان المعاصر تكاد تشملها الآلية فى كل نواحيها فإن هذا الإنسان يعيش فى مستنقع من الاغتراب . وهنا تكون الفلسفة مطلبا هاما للإنسان المعاصر حتى يمكنه أن يتغلب على مشكلات الحياة الراهنة .. فالتفكير الفلسفى يعنى ممارسة عقلية أكثر عمقا بفضل ما يلتزم به من اتجاهات نقدية . والفلسفة هى الالتزام بالنظرة التى تتعدى الحدود وتتجاوز الملموس وتبحث فى الأعماق إذ يحلق الإنسان فى آفاق تنسيه الاغتراب وتشعره بحريته ولو للحظات، ولذلك فإن القدرة على التفلسف تعنى قدرة الذات على التحرر، كما تظهر الفلسفة على أنها كشف لجزيرة الحرية فى بحر الاغتراب . وباستطاعة هذه القدرة الفلسفية أن تضفى معقولية جديدة على الأشياء، فتخرج بها من مجرد عناصر تستجيب لآلية الطبيعة كما تخرج بالأنا من حلبة الحتمية وصراع الأضداد. فالتفلسف ليس شيئا آخر سوى الوعي بالاغتراب ومحاولة تصفيته ووضع خطة للعمل الخلاق تحل محل التتابع الآلي . وهذا معناه خلق مواقف جديدة وتنمية ما لدى الفرد من قدرات حرة على أرض الواقع الحتمي.(57)

إن الفلسفة باقية ما بقى للإنسان تاريخ، وأنها لا يمكن أن تنقطع عن الوجود ما عاش الناس، فلقد نهض الفلاسفة فى الشرق والغرب أمام بطش القوة، وسلطان المادة، ورفعوا لواء القيم الروحية، وأدوا للعقل ما ينبغي له من احترام، وأيدوا حقوق الضمير الأخلاقي ومطالبه . ولم يثنهم النفي والقتل والتنكيل عن المضي فى طريقهم، ولا عاقهم عن مواصلة بحوثهم وأداء رسالتهم فكانوا حقا شهداء على البطولة الرفيعة، وممثلين لوثبة الروح وثبة قوية دافعة نحو الحقيقة، ونحو الحرية ونحو الكرامة.(58)

ونلخص من هذا العرض الموجز حول علاقة الفلسفة بالمجتمع إلى أن الإنسان لا يستطيع أن يتخلى عن الفلسفة، ولا يمكن الاستعاضة عن الفلسفة بأى بديل آخر، ولا يحل محل الفلسفة إلا الفلسفة . فالهجوم على الفلسفة هو فى حد ذاته فلسفة، وبهذا تصبح الفلسفة هى قدرك سواء أردت أو لم ترد، حقا إن مثل هذا القدر لا يعنى بالضرورة أنك قد أصبحت فيلسوفا بالمعنى الدقيق الضيق لهذه الكلمة . إلا أنه من ناحية أخرى يعنى أن لك من الوعى ما يدفعك للتساؤل حول أحقية الفلسفة ومشروعيتها وليس هذا التساؤل إلا الخطوة الأولى من خطوات الموقف الفلسفي الصحيح .(59)

كما نلخص إلى أن الدور الذي قامت به الفلسفة فى مسيرة الحضارة الإنسانية لا ينبغى الاستهانة به أو التقليل من شأنه فالفلسفة فوق كونها تعبيرا عن روح العصر ومرآة صادقة لكل سلبياته وإيجابياته وتناقضاته، إلا أنها من ناحية أخرى قوة محركة ودافعة لمسيرة العصر ذاته. فالفيلسوف – سواء اتفقنا معه أو اختلفنا – هو أقدر من يعبر عن روح الحضارة . وصدق "هيجل" عندما قال أن أصدق وعى يمكن أن تكونه عن مرحلة تاريخية معينة هو وعى فلاسفة تلك المرحلة، إلا أن وعى الفيلسوف بعصره ليس مجرد وعى مستسلم خاضع خضوعا كليا لعصره، غير قادر على تجاوزه أو التعالي عليه، بل هو وعى ثوري يحتوى عصره داخله، ويفرزه شيئا جديدا يستشرف به أفقا من الإمكانيات الخلاقة التى لم تتحقق بعد .(60)

وعليه فإن من يشكون فى جدوى الفلسفة ويسخرون منها لا يسيئون إلى أنفسهم، وإلى أمتهم فحسب، بل يسيئون إلى الإنسانية كلها، فالفلسفة هي التي تصنع الأفكار، وبالأفكار تصنع الحضارات وتنهض الأمم . وإذا كان الفلاسفة كغيرهم من البشر معرضون للفناء والموت فإن فكرهم الفلسفى خالد لا يموت .

**- دور الفلسفة في حياة الإنسان :**

تقوم الفلسفة بدور كبير في حياة الإنسان على عدة مستويات، المستوى الفردي أي الولد أو الطفل وعلى المستوى الاجتماعي أي التنشئة الاجتماعية، وعلى المستوى الإنساني أي أنسنة الإنسان.

**أ- على المستوى الفردي:  (التنشئة الفردية).**

**1-**    تقوم الفلسفة في مراحل التعليم الثانوي والجامعي بتنمية جملة من المهارات والقدرات لدى المتعلم.

**2-**    تعمل على تقوية وتعزيز السلوك العقلاني المنظم في الحياة الفكرية والنفسية والدراسية والاجتماعية للمتعلم (التزود بالروح العلمية والفلسفية).

3/ تسمح بامتلاك الثقافة العلمية والفلسفية والقدرة على التعبير الدقيق، واليقظة الفكرية والصرامة المنطقية، والمراقبة الذاتية خلال التفكير والتعبير، والحوار الفلسفي.

**4-**    تنمية القدرة على المشكلة والصورنة والبرهنة.

**5-**    تنمية القدرة على القراءة والفهم والتعبير والاستدلال الصحيح.

**6-**    تنمية القدرة على التحليل والتركيب والتصنيف والتنظيم والتعليل. (مهارات فكرية ومنهجية).

**7-**    تنمية القدرة على النقد وإصدار الأحكام واتخاذ المواقف.

**8-**    تنمية وعي المتعلم لذاته ولمحيطه.

**ب- على المستوى الاجتماعي: (التنشئة الاجتماعية).**

**1-**    تزود الفلسفة المجتمع بأصول ومبادئ وغايات النظام الاجتماعي الذي يحكمه ويحكم الحياة الاجتماعية فيه.

**2-**    تزود المجتمع بأصول ومبادئ وغايات النظام التربوي أي فلسفة التربية في المجتمع.

**3-**    تستمد المنظومة التربوية التي تتكون من الأسرة والمدرسة والمجتمع مادتها ومناهجها وغاياتها ومبادئها وأهدافها من فلسفة المجتمع وفلسفة حياته عامة.

**4-**    تقوم بدور التنشئة الاجتماعية لأفراد المجتمع من خلال تربية الطفل وتثقيف الفرد باستمرار  فيـعي الفرد وجوده الذاتـي والاجتماعي معـاً.

**5-**    تُـعرّف الفرد في وطنه على الأصول الفلسفية للثوابت الوطنية.

**6-**    تقوم بتوعية التلميذ والمتعلم بحقوقه وواجباته في المجتمع خاصة واجبات المواطنة وتنظم المجتمع.

**7-**    تمكن الفرد من التكيف والمساهمة الفعّـالة في تغيير المجتمع، لأن أي تغيير في المجتمع مبني على أسس فلسفية.

**8-**    تمكّـن الفرد من الحرص على تمثل قيم ونظام المجتمع دون إعاقة المبادرة إلى النقد وإلى التجديد باستمرار.

**ج.  على المستوى الإنسانـي : (أنسنة الإنسان**).

**1-**    التعرف على التراث الفلسفي الإنساني والتجاوب معه.

**2-**    التوعية بمبادئ حقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية وتمثلها والدفاع عنها.

**3-**    التعرف على الصراع الثقافي والايديولوجي السائد في العالم والتعاطي معه بإيجابية.

**4-**    التعرف على النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأبعادها.

**5-**    الإيمان بالمثل والقيم العليا وتمثلها والدفاع عنها مثل الحرية والعدل والحق والتسامح...الخ.

**6-**    التمكين من اكتشاف سبل الحق والالتزام بالسير فيها واكتشاف مزالق الشر والباطل واجتنابها.

**7-**    احتواء العنف الفكري وتوجيهه إلى ما فيه صلاح الفرد وصلاح المجتمع وصلاح الإنسانية.

**8-**    تمثل قيّم التسامح الفكري والديني والحضاري عامة واعتماد أسلوب الحوار في التعامل مع الآخر اجتماعياً وإنسانياً.

**الهوامش :**

1. محمود زيدان : مناهج البحث الفلسفي ، ص 60 .

2. المرجع نفسه ، ص 47 .

3. الجرجاني: التعريفات ، ص 63

4. جميل صليبا : المعجم الفلسفي ج 1 ، ص 705

5. .ـالمرجع نفسه ، ص 588

6. الجرجاني : التعريفات ص 65

7. محمود زيدان : مناهج البحث الفلسفي ،مرجع سابق ، ص 51 .

8. رينه ديكارت : مقال عن  المنهج ، ترجمة محمود محمد الخضري، المطبعة السلفية ومكتبتها ، القاهرة ، د ط ، 1930 ، ص 30 ـ 32

9.امييل برييه :  اتجاهات الفلسفة المعاصرة ، ترجمة محمود قاسم ، دار االكشاف للنشر و للطباعة و التوزيع ، بيروت ، د ط ، 1956 ، ص 31.

10. محمود زيدان : مناهج البحث الفلسفي ، مرجع سابق ،  ص 79

11. اينوشنتي ماريا بوشنسكي : الفلسفة المعاصرة في أوروبا ،  ترجمة عزت قرني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1992، ص 185 .

12. جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، ج 1 ، ص 254

13. محمود زيدان: مناهج البحث الفلسفي ، مرجع سابق ، ص 91

14. الزواوي بغورة: المنهج البنيوي بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات،  دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر، ط 1 . 2001. ص 68

15. المرجع السابق،  ص 13.

16. المرجع نفسه،  ص 115

17. المرجع نفسه ،  ص 151 .

18. لالاند : موسوعة لالاند الفلسفية ص 555 .

19. برييه تاريخ الفلسفة ج 3، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ط 1 ، 1987 ،  ص 23.

20. نيقولاىبرديائف : العزلة والمجتمع، ترجمة فؤاد كامل عبد العزيز، مراجعة على أدهم الهيئة المصرية للكتاب ص 32 .

21. أ.م. بوشنسكى : الفلسفة المعاصرة فى أوربا، ترجمة د. عزت قرنى، عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت ص 11

22. د. محمد مجدى الجزيرى : الفلسفة بنظرة حضارية، القاهرة، بروفيشنال للإعلام والنشر 1984، ص11 .

23. د. عبد الوهاب جعفر : رؤية معاصرة لطبيعة التفكير الفلسفى، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية 1981 ص 20.

24. د.عثمان أمين:محاولات فلسفية،القاهرة مكتبة الأنجلو المصريةط1 ط2 1967ص 12

25. د. محمد ثابت الفندى : مع الفيلسوف، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر 1980 ص 21.

26.Roubiczek .b : Existentalism for and against cambridge . At the university press 1966 p-55

27. على عبد المعطى : سورين كير كيجارد، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية 1993 ص 100 .

28. بوشنسكى : الفلسفة المعاصرة فى أوربا . ص 265 .

29.Roubiczek. B .op –cit . p-61

30.د. إبراهيم طلبة سلكها : الإنسان والحضارة فى فلسفة أورتيجا، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة طنطا كلية الآداب ص74 .

32. د. محمد مجدى الجزيرى : الفلسفة بين الأسطورة والتكنولوجيا، مطبعة العاصمة بالقاهرة 1985 ص 221 .

33. د. زكى نجيب محمود : موقف من الميتافيزيقيا، دار الشروق المقدمة (ف)

34. البيرت أشفيتسر:فلسفةالحضارة،ترجمةد.عبد الرحمن بدوى،مراجعة د. زكى نجيب محمود،المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ،ص ص13-16

35. د. محمد ثابت الفندى : مع الفيلسوف . ص ص 2- 9 30 .

36. بوشنسكى : الفلسفة المعاصرة فى أوربا . ص ص11- 12 .

37. نيقولاىبرديائف : العزلة والمجتمع . ص 33 .

38. بوشنسكى : الفلسفة المعاصرة فى أوربا . ص ص 12 – 13 .

39. ألفريد نورث وايتهد : مغامرات الأفكار . ترجمة أنيس زكى حسن، مراجعة ، د. محمود الأمين، بيروت دار مكتبة الحياة ، بيروت ،ط2، ص13.

40. د. عثمان أمين : الجوانية، أصول عقيدة وفلسفة ثورة دار القلم 1964 ص ص 141 – 143 .

41. د. توفيق الطويل : أسس الفلسفة، دار النهضة العربية ، ط 1976 ، ص 275.

42. بوشنسكى : الفلسفة المعاصرة فى أوربا . ص 14 .

43. د. توفيق الطويل : أسس الفلسفة ، ص 129 .

44. د. عثمان أمين : محاولات فلسفية ، ص 11 .

45. المرجع نفسه ،ص ص 11 – 12 .

46. المرجع نفسه ، ص ص 13 – 14 .

47-Stumbf. Samuel: ELEMENTS OF PHILOSOPHY, New York, Macgraw – Hill. Book company 1987 . pp – 3-4 .

48. د. عبد الرحمن بدوى : مدخل جديد إلى الفلسفة، الكويت، وكالة المطبوعات ط : 1976 . ص ص 19 – 20 .

49. د. محمد ثابت الفندى : مع الفيلسوف . ص 26 .

50. المرجع نفسه ص ص 19 – 20 .

51. د. عبد الرحمن بدوى : مدخل جديد إلى الفلسفة ، ص 117 .

-52-Neil , Mcinnes : “Ortega y Gasset, Jose “ in “Encyclopedia of philosophy “ London .1967 . p – 3.

53-Ortega,y Gasset,Jose :Phenomenology and Art,Translated with an introduction by Philip silver , New York . M.M Norton and Company inc1946 , p . 56 .

54. د. محمد مجدى الجزيرى : الفلسفة بنظرة حضارية ، ص 278 .

55 . د. عثمان أمين الجوانية ص ص 140 – 141 .

56. د.عبد الوهاب جعفر:رؤية معاصرة لطبيعة التفكير الفلسفى ص ص 34-35 .

57. المرجع السابق ، ص ص 144 – 145 .

58. د. محمد مجدى الجزيرى : الفلسفة بنظرة حضارية ، ص 12.

59. المرجع نفسه ، ص 23 .